

أهسية الشتاء البهيج

حسن فتح الدياب

أشكّل من مفردات الشتات الجميل
إطاراً لصورتك النائية
وأرسم عينيك تبتسمان
عناقيد شعرك أغفت على كتفي
يديك تلفان وجهي تضيئان روحي
وبين ذراعي تنمو براعم غصنك
أرسم رقصتك الحانية
عبيرك في غبش الأمسيات ، ابتهاجاً
لعينيك والفجر ، رعشتك المشربة
عند اندلاع السهاد ، وتهدئة الضوء ،
هذا السناء الندى المثير
أوشيه في الصورة المشتهاة
أراعيه حتى الشعاع الأخير

تموج التماثيل بالفتنة النائمة
وترنحف الأعمدة
فأعبر هوتنا المستباحة بالامكنة
لتنكسر الأزمنة
وتنفجر اللحظة الخادمة

أسافر في خلجات العيون المضيئات
في رفة الطير تحت الغمام وهمس البحيرات
في خصل الشمس منسدلات سنابل
شعر الصبايا جداول
في ضحكات الطفولة ، ترنيمه الناي في المنحنى
وفي لغة الكائنات الخفية
في ضجة العشق بين الميادين والشرفات
وبين الحدائق والنهر
في المذن الحلمات الرجية في الليل
طفلاً يعيد بناء قصيدته فوق بحر الرمال :
هنا مقطع يتقاطر بعد البداية ، لا مقطع للختام
هنا قبضة من حصي
حفنة من قواقع ، عشب ، مياه
لعل أجمع هذا الشتات البهيج
فترسم الصورة الغائمة
أنسق إكليل زهر ليرتد لي وردة واحدة
وأخشى عليك رذاذ المرايا
فأنفي الشوائب عنها بأهداب جفني
وأحيالك حتى أعانق وهمي وحلمي
وأسترجع الطفل والأغنية

وتنداحُ أجراسُ هدى الفضاءات
أذكرُ صمتكُ بين زهورِ الأصيلِ
وبين رحيلِ العصافيرِ للضفةِ الثانيةِ
وفتنتكُ الشاجيةِ
يعودُ بي الزمنُ المستحيلُ
فأستعجلُ العودةِ المستبدةِ
والنظرةِ الهائمهِ

يقودُ خطانا الحنينُ إلينا ، إلى المهدي ،
بَرْدُ المقاهي على « المتوسِّطِ » ،
عُرَى المياهِ التي راودتنا
ورائحةِ البحرِ خلفِ الملاهي النَّشاوي

بعطرِ بناتِ الشمالِ
عيونُ المها والرفافةِ والجسرِ تمضي
وتصخبُ ريحُ الشمالِ
ويُفتَحُ بابُ قلبي على موجِ بحرِ الشمالِ
ويعترجان فتصغي مدينته للخطى الراقصاتِ
على وقعِ ماضٍ بعيدِ
تجسَّدُ حوريةٌ تحتويني بنيرانِ « دانتى »
فأحنو عليها « بغفرانِ شيخِ المعرةِ »
أقرأ فيها تواريخَ كلِ الحضاراتِ
أسمعُ رجعَ قيودي ، حنيني إلى الجاهليةِ
حينَ يمارُ الجوابُ ، وحينَ تغاضبني بالعتابِ
وأُنكرُ فيها التحدي ، فترتدُ دامعةٌ فوقِ خدي
وتقهرنني بالبكاءِ
فأكتنمُ عنها ارتياي ، وأخفي دمي وانتمائي
وأرتدُ مزدرداً كبرياتي

يُكلِّلنا مهرجانُ الضياءِ ، صواريخُ « يوليو »
فأزوي لها عيدنا ، ثورة الكادحين
فتهتفُ : أنت أنا ثورة

أستفيقُ إلى لغةِ العشيِّ لامرأةٍ
عُمدت بيماءِ الضفافِ الطليقةِ

جُمعَ فيها شتاتُ النساءِ الحبيباتِ ، ثارت
تساوتُ مع التاجِ والصَّولجانِ العتيقينِ
أشردُ حتى تطوقني بذراعِي حنانِ
لأنسى اغترابي
تُقبِّلني في الطريقِ فأحجلُ ، تُنكرُ وهمي وهمي
وتُحجلُ مني ، تعاتبني بانقطاعِ الحوارِ
تعودُ معابنةً كتنفي بخدينِ يستضحكانِ
وتلثمُ أنفي بأغملِ أم تناعِي
وتُحنانِ عاشقةٍ لا تداري ، لألقى قناعي
مُساومةً مقلتي بعينين تتسميانِ
إلى الجبلِ الأخضرِ المتواري
وراءِ الرُخامِ المغني المندى بدمعِ الغمامِ
أسألها عن غزالاتِ « روما »
ومن أين جاءت هذي النبالِ التي أمطرتني
سُروراً شجيئاً ، سيباجاً من النورِ
بُرءاً أماناً لقلبي ، من النارِ برداً سلاماً لروحي
وأرختُ على ستاراً خفيئاً
عن المرحِ الوثني المقدسِ بين التماثيلِ
حولِ معابدِ « روما » النوافيرِ
شدو المغنين تحت خريزِ جداولها
عن هيامِ الحمامِ الذي لم يُطوقَ بأحضانها
يملاً الرُحْبَ حباً يغني ويلتقطُ الحبَّ
أسأل عنها مغاني صباها ، هواها
تُجيبُ بسحرٍ من « المجدليةِ » تسكبنني قطراتِ
من الترعِ الشاحباتِ على النيلِ روتِ جذوري
ومن « حارةِ المجدلي » فتحت جفونَ عليها شربتُ
ظمئتُ وأحببتُ فيها نثمتُ نعيمِ شقائِي إليها
وأعلنُ رفضي فتناي لتدنو
وتملؤني بالأمانِ الحرارِ وشمسِ البحارِ
وتقهرنني بالغناءِ

تشابهَ دمعُ وشدو ، والملحُ - كانت تُغني -
وميضُ شعاعِ جديدِ وراءِ العيونِ
يقرُّ من النيلِ - تختلطُ الأمسياتُ الليالي

على النهر والبحر - مُنطلقاً في المدى المترامى الشعاع
أقول هو الشوق للنجح

هذا نداء رياح الشمال إليها
ومسكني فجأة تشبُّث بي كالطريد
أراغ لماراعها ، أتحول عنها إليها

وأذكر أن الرحيل قريب فأحنو عليها

تطل ، تناشدني موعداً في الغمام
على كونها بالشمال ، تنادى : « تعال تعال
سأسقيك ماء الهوى صافياً كنسيم الجبال

كقطر الندى في جفون زهورى
كقطعم الرحيق المعتق في قبونا كاعتناق غريبين
تغفو على وجعتي وتصحو على قبلاق
وعيناي تحتضنايك

تنشق عطر المروج على شفقي
وتكتب أحلى القصائد تحمى حياتك أفديك
لا غيم إلا جناح السموات ركب العصافير
لا ظل إلا السرور

وأمنح خادمتي عطلة ، جئت عيداً لنا ،
طفلة في إهاب القرفنل تلهو ، لها حُبها وفتاها
ولي أنت ، لي وحدنا ، سوف أطهو
أهبي ما تشتهي أيها العربي ! ،
وتبسم من خيفة أن أغازيب ،
تمتد رحلة إسرائنا طائرين

من القمح حتى الكروم ، من الموج حتى النجوم
وحين تفضل المدائن عنا تغيب كئاسها والمآذن
تنجو الرهائن من كهفها تنجلي الغمرات
ويسقط عنا الغبار ووهم جابرة باتسين
فنحلّم أنا عشيقان من أعصر لم يمن جنبها بعد
أمكنة لم تكن ، أننا ثورة في الزمان العقيم
لضم الشتات ، ليلتقى الإخوة الأشقياء
لنحمى قلب المدينة من بغضها والجنون
نضيق فنعلم أننا نور علينا ، على أننا
أو نفارقها بالدموع وبالجدسين استبداً وأنا الضحايا
وتبكين أو تضحكين فنفرع للحب

نفرع في النار أحراننا والخطايا
ويعلو ستار الحبيبة ضوء نهار جديد
فتشرق عينا غزاة « روما » وبسمة طفل وليد
وتحمل لي وردتين وتفاحتين
وقهوتنا بين كأس حليب
تراني في غفوة الحلم مازلت
يوقظني همسها والعيير ، حوار يديها :
لك الأمر لكننا الجو هذى الصبيحة صحو
وكرمتنا في انتظار خطانا إليها لنشرب بين يديها
نيذاً قطفناه منها ، وشعرك الحب والذكريات على النيل
تمرح حين ألقى الدعاء وتهتف : « كنت نؤوم الضحى
قد تغيرت بي ، كم أجبك حين تعاتب حين تداعب
ها أنت لي ، ونثررتي حتى اشتعال الأصيل
عن النهر والبحر يعتقان ، عن الأعين السود
والياسمين وسحر الموجات تحت المعابر
والخطوات النشوى الأغاني ، وسهرتنا في ضياء القمر

وتأوى الطيور لأعشاشهن ، تحط الفراشات
يولد برق جديد
ونخرج من مطرين ومن معطفين
وندخل في موجة واحدة
تضئ شمس البلاد البعيدة
تدني أغاني المواشي السعيدة
دمعاً لذكرى غد لا يحين
وشمعاً لبقى الحنين
ويخضل طيف الشتات
إذا جادني الغيث بالذكريات

ويأت خريف الحديقة ، مازلت مُقعممة بالرحيق
وسحر الحياة : الرؤى والحقيقة
فأنسى سقوط المدائن قبل السقوط
وقبرة صدحت بنعيب الغراب
أنين الضحايا ، سعار الثعالب بعد الحريق



[Handwritten signature]

لِتَبَيِّنَ لِي الصُّورَةَ النَّائِيَةَ
وَيَبْقَى لِي الظِّلُّ وَالْمَوْجُ مُصْطَبِعًا بِالْوَدَاعِ
وَوَفَضَ النُّوَارِسَ خَلْفَ الشَّرَاعِ
وَزَيْتِكَ الَّتِي اغْرُورَقْتَ بِالسَّهَرِ
لِيَالِي حَانَ السَّفَرِ

وَتَبْقَى الْعِيُونَ الْمُضِيْفَةُ طَيْفَ رَبِيعٍ مُقِيمِ
وَرَسْمًا لِدُنْيَا شَتَاتٍ بِهَيْجِ
تَشْكُلُ أَغْنِيَةَ فِي السُّحْرِ
وَأُمِّيَّةً مِنْ دَمْعِ الشُّجْرِ
وَمِنْ دِيلِ حُبِّ قَدِيمِ

حسن فتح الباب

وَأَنْسَى ارْتِطَامَ الْحَجَرِ
بِقَلْبِي الْغَرِيرِ الْغَرِيقِ
وَأَفْعَى تُرَاوِدُنَا بِالْبَرِيقِ
وَيَبْقَى لِي الْفَجْرُ مُشْتَعَلًا بِالنَّدَى وَالشُّرُوقِ
وَلَيْلُ الشَّجَى وَالنُّوَى يَتَجَرُّ

أَجْمَعُ هَذَا الشَّتَاتِ
وَأَمْزِجُ الْوَانَةَ فِي إِثْنَاءِ حَرِيرِ حَجَرِ
لَأَسْكِبَتْ رِيحَ الضُّجْرِ
أَقَارِبُ مَا بَيْنَ نَجْمِي وَشَمْسِيكَ عِنْدَ مَغِيبِ الْقَمَرِ